آفاق الثقافة والتراث
مجلة فصلية ثقافية تراثية
تصدر عن قسم الدراسات والمجلة
بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث
دبي ـ ص.ب. ٥٥١٥٦
هاتف ٢٦٢٤٩٩٩ ٤ ٩٧١+
فاكس ٢٦٩٦٩٥٠ ٤ ٩٧١+
دولة الإمارات العربية المتحدة

مكتبة وملتقى علم الأصوات
phonetics-acoustics.blogspot.com

السنة الحادية عشرة : العدد الواحد والأربعون ـ صفر ١٤٢٤ هـ ـ ابريل (نيسان) ٢٠٠٣ م

مقالات

التنغيم عند ابن جني

الأستاذ/ أحمد البايبي
المغرب

نحاول في هذا المقال الكشف عن التنغيم (Intonation) عند ابن جني، على الرغم من أن الكثيرين من الدارسين ينفون هذه الظاهرة التطريزية عن النحو العربي، يقول كانتينو، مثلا: «لا يمكن أن نعول على النحاة العرب القدامى فيما يخص التطريز، فهم لم يهتموا بكمية الحركات والإيقاع الشعري المبني على هذا الكم، فإنهم لم يهتموا لا بنبر الكلمة ولا بتنغيم الجملة، واقتصرت دراستهم على الوقف»[١]، وهذا تعميم وقع فيه الأنطاكي كذلك بقوله: «قواعد التنغيم في العربية مجهولة تماما؛ لأن النحاة لم يشيروا إلى شيء من ذلك في كتبهم»[٢]، ومثل هذا الكلام نجده عند تمام حسان: «التنغيم في اللغة العربية الفصيحة غير مسجل ولا مدروس، ومن ثم نخضع دراستنا إياه في الوقت الحاضر؛ لضرورة الاعتماد على العادات النطقية في اللهجات العامية»[٣].

إن هذه الآراء قد لا نعدم مثلها عند لغويين آخرين[٤]، حتى إنه يجوز لنا أن نستنتج مع أحمد كشك وجود «إحساس عام عند اللغويين المعاصرين يؤكد بُعْدَ التنغيم عن أن يكون له قيمة صرفية أو نحوية في لغتنا العربية، وأنه لم يخطر ببال القدامى استخدامه من هاتين الناحيتين»[٥].

وهدفنا هنا تجلية التنغيم عند النحاة العرب القدامى، من خلال أعمال ابن جني النبيهة. وإذا ما تحقق ذلك فسيكون لبنة مهمة من لبنات يؤسس بها تأسيسُ تصور عن قواعد التنغيم في اللغة العربية، وإبراز هذا المكوّن التطريزي في بنيتها (Structuration).

http://phonetics-acoustics.blogspot.com/

وسنسوق نصوص ابن جني منظمة في ثلاث فقرات، نعالج في الأولى الملامح التنغيمية، وفي الثانية وظائف التنغيم الانفعالية التعبيرية والتركيبية والدلالية على التوالي، وسيظهر لنا أخيراً أن التنغيم ليس مشارا إليه فحسب، بل يخرق قواعد النحاة التركيبية، والصرفية، والصوتية، والدلالية، والإعرابية.

الملامح التنغيمية

ورد في كتابات ابن جني ملمحان بارزان هما: التأني والإسراع، يقول في سياق احتجاجه لقراءة الأعرج ومسلم بن جندب وأبي الزناد: ﴿ياحسره﴾ ساكنة الهاء ، ﴿على العباد﴾: أما ﴿ياحسره﴾ بالهاء الساكنة ففيه النظر. وذلك أن قوله: على العباد متعلق بها، أو صفة لها. وكلاهما لا يحسن الوقوف عليها دونه، ووجه ذلك عندي ما أذكره، وذلك أن العرب إذا أخبرت عن الشيء غير معتمدته، وغير معتزمة عليه، أسرعت فيه، ولم تتأن على اللفظ المعبر به عنه، وذلك كقوله:

قلنا لها قفي لنا قالت قاف

معناه وقفت، فاقتصرت من جملة الكلمة على حرف منها، تهاونا بالحال، وتثاقلا عن الإجابة واعتماد المقال. ويكفي في ذلك قول الله سبحانه: **﴿لا يؤاخذكم الله في اللغو في أيمانكم﴾** قالوا في تفسيره: هو كقولك: لا والله، وبلى والله. فأين سرعة اللفظ بذكر اسم الله تعالى هنا من التثبت فيه، والإشباع له، والمماطلة عليه من قول الهذلي:

فوالله لا أنسى قتيلا رزئته
بجانب قوسي ما مشيت على الأرض؟

أفلا ترى إلى تطعمك هذه اللفظة في النطق هنا بها، وتمطيك لإشباع معنى القسم عليها ؟

وكذلك قد ترى أيضا إطالة الصوت بقوله من بعده:

بلى إنها تعفو الكلوم وإنما
توكل بالأدنى وإن جلّ ما يمضي

أفلا تراه لما أكذب نفسه، وتدارك ماكان أفرط فيه لفظه، أطال الإقامة على قوله: (بلى)، رجوعا إلى الحق عنده، وانتكاثا عما كان عقد عليه يمينه؟ فأين قوله هنا: (فو الله) وقوله: (بلى) منهما في قوله: لا والله، وبلى والله، وعليه قوله تعالى:

﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾ ؛ أي وكدتموها وحققتموها[٦].

يُبرز هذا النص جوانب من التغييرات الحادثة في طبقة الصوت؛ حيث توظف العرب ملمح الإسراع «إذا أخبرت عن الشيء غير معتمدته ولا معتزمة عليه، بل «تهاونا بالحال، وتثاقلا عن الإجابة، واعتماد المقال»، مما قد يؤدي إلى الاقتصار «من جملة الكلمة على حرف منها»، بينما تستعمل العرب ملمح التأني تعبيراً عما اعتمدته واعتزمت عليه؛ في مثل القسم: أفلا ترى إلى تطعمك هذه اللفظة في النطق (...)، وتمطيك لإشباع معنى القسم، فهذا التطعم للفظ والتلذذ به، بل التثبت فيه، والمماطلة، أو طول الإقامة، يكون أيضا رجوعا إلى الحق عنده، وانتكاثا عما كان عقد عليه يمنيه» أو «لما أكذب نفسه، وتدارك ما كان أفرط فيه لفظه». فالتأني إذًا يصاحب هذه السياقات المتداولة، التي يكون فيها توبة وندم ورجوع إلى الحق، إضافة إلى القسم. وهكذا

التنغيم عند ابن جني

نستنتج – مثلا – أنّ لفظتي: الله، وبلى، بالتأني (مع ما يصاحبه من تطعم ومماطلة وتمطيط) غير لفظتي الله وبلى بالإسراع.

وإذا عدنا إلى القراء وجدنا هذين الملمحين يتحكمان عندهم في درجات المد، يقول القيسي: «والقراء في إشباع المد وتطويله على قدراتهم وتمهلهم أو حدرهم، فليس مد من يتمهل ويرتل كمد من يحدر ويسرع»[٧].

ويرتبط التأني أيضا بملمح الرفع زيادة على تعالقه بالتمكن والإشباع، وهذا ما نستشفه من احتجاج ابن جني لقراءة الحسن البصري: ﴿سأوريكم﴾ بالواو: «وزاد في احتمال الواو في هذا الموضع أنه موضع وعيد وإغلاظ، فمكن الصوت فيه، وزاد إشباعه واعتماده، فألحقت الواو فيه لما ذكرنا»[٨]، فالدلالة على «الوعيد والإغلاظ» مما تعتزم العرب عليه وتعتمده، لذلك مكن الصوت وزاد إشباعه، بل رفعه بوساطة الواو الذي من ملامحه التميزية (+عال).

تلك إذًا أبرز الملامح التنغيمية البارزة عند ابن جني، فماذا عن وظائف التنغيم؟

وظائف التنغيم

على الرغم من أنّ أبا الفتح لم يوظف مصطلح التنغيم، بله أن ينظر صراحة لوظائفه، إلا أنه راكم في (الخصائص) و(المحتسب) إشارات عديدة عن هذه الظاهرة التطريزية، مما يعكس إحساسه بها، واستحضاره لها في تحليلاته، وبخاصة عند احتجاجه للقراءات الشاذة، ملتمسا كل السبل؛ لإيجاد وجه لها، ومستعملا عتاده الصوتي والصرفي والتركيبي... لدفع تهمة الشذوذ اللغوي عنها. وفيما يأتي تصنيف لتلك الإشارات.

١ – **الوظيفة الانفعالية التعبيرية**: ويقصد بها التعبير عما يختلج داخل النفس من أحاسيس وانفعالات: مثل الخوف والحزن والفرح والاندهاش والتعجب والتعظيم والحسرة... ولعلنا نقف على بعض من هذا، إذا استحضرنا النص السابق، الذي يشف عن عمق تصور ابن جني للتنغيم واستبطانه لأثره في تشكيل الخطاب، وإدراكه لوظيفته التعبيرية؛ فطول الإقامة على (بلى) تعني الرجوع إلى الحق، والانتكاث عما كان عقد عليه يمينه، فهي إذاً توبة وندم، بينما تطعم (فو الله) في النطق والتثبت فيها، والتمطي لإشباع معنى القسم، والمماطلة عليها، هو تعبيره عن توكيده وتحقيقه، وهو أيمان مغلظة، في حين أن السرعة وعدم التطعم «للفظ بذكر اسم الله، هو لغو في الأيمان، والله لا يؤاخذ عليه»، فالتنغيم يؤثر تأثيرا خطيرا في المجال الديني، حيث يترتب عليه الجزاء. وهو ما يمكن أن نصطلح عليه بالوظيفة الجزائية للتنغيم. أما التهاون والتثاقل والتعبير عن عدم الاهتمام بالشيء فيفهم عن العرب، إذا ما أخبرت عن الشيء غير معتمدته ولا معتزمه عليه؛ أي لم تتطعمه، بل تسرع في أدائه.

وفي التعبير عن الاستهزاء يقول ابن جني: «ومن ذلك قرأ ﴿وإذا متنا وكنا ترابا إنا﴾ على الخبر كلاهما بلا استفهام.

قال أبو الفتح: مخرج هذا منهم على الهزء، وهذا كما تقول لمن تهزأ به: إذا نظرت إلي مت منك فرقًا، وإذا سألتك جمعت لي بحرًا؛ أي الأمر بخلاف ذلك، وإنما أقول هازئا. ويدل على هذا شاهد الحال حينئذ، ولولا شهود الحال لكان

http://phonetics-acoustics.blogspot.com/

حقيقة لا عبثا، فكأنه قال: «إذا متنا وكنا ترابا بعثنا»[٩].

ومن المعاني الإضافية كذلك الوعيد والإغلاظ، وقد سبق أن أوردنا قوله في المحتسب: «وزاد في احتمال الواو في هذا الموضع ﴿سأوريكم﴾ أنه موضع وعيد وإغلاظ ، فمكن الصوت فيه، وزاد إشباعه واعتماده، فألحقت الواو فيه»[١٠].

٢- الوظيفة التركيبية

يمكن رصدها من خلال عنصرين؛ الأول: قيام التنغيم بوظيفة المقولات التركيبية، والثاني: تفريقه بين معاني الجمل والمقولات التركيبية.

أ- التنغيم يعوض المقولات التركيبية:

كثيرا ما يحذف مكون من مكونات الجملة؛ لينتصب التنغيم مقامه، ومن ذلك:

- **حذف الصفة:** يقول ابن جني في سياق حديثه السابق عن قراءة ﴿ياحسرهْ على العباد﴾: وإذا أوليت هذا أدنى تأمل عرفت منه وبه ما نحن بسبيله وعلى سمته، وعلى هذا قال سيبويه: «إنهم يقولون: سير عليه ليل، يريدون ليل طويل: وهذا إنما يفهم عنهم بتطويل الياء، فيقولون: سير عليه ليل، فقامت المدة مقام الصفة»[١١].

وما ألمح إليه هنا ابن جني أسهب فيه في كتاب (الخصائص)، حيث يقول: «وقد حذفت الصفة،ودلت الحال عليها، وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم: سير عليه ليل، وهم يريدون: ليل طويل، وكأن هذا أنّ ما حذفت فيه الصفة لما دل من الحال على موضعها، وذلك أنك تحس في كلام القائل من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله طويل أو نحو ذلك، وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملته. وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه، فتقول: كان والله رجلاً، فتزيد في قوة اللفظ (بالله) هذه الكلمة، ولتمكن في تمطيط اللام وإطالة الصوت بها وعليها؛ أي رجلا فاضلا، أو شجاعا، أو كريما، أو نحو ذلك. وكذلك تقول: سألناه فوجدناه إنسانا، وتمكن الصوت بإنسان وتفخمه، فتستغني بذلك عن وصفه بقولك: إنسانا سمحا، أو جوادا، أو نحو ذلك.

فعلى هذا وما يجري مجراه تحذف الصفة. فأما إن عريت من الدلالة عليها من اللفظ أو الحال، فإن حذفها لا يجوز (...) ومن ذلك ما يروى في الحديث: (لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد)؛ أي لا صلاة كاملة أو فاضلة ونحو ذلك. وقد خالف في ذلك من لا يعد خلافه خلافا»[١٢].

يبرز ابن جني - في هذين النصين - «إمكان حذف الصفة؛ لينتصب التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم مكانها. إن الأمر يعني أن يذهب الصوت ويجيء في الهواء، وأن يطول ويرفع ويعلى ويزاد في مده؛ أي إنّ المتكلم يحدث تغييرات في طبقة الصوت»[١٣].

ولقد شدد أبو الفتح على قيمة التلوينات الصوتية، وجعلها في مستوى دلالات المقام، «فأما إن عريت من الدلالة عليها من اللفظ أو من الحال فإن حذفها لا يجوز».

- **حذف المضاف إليه:** «لقد أدرج ابن جني الحذف تحت باب في شجاعة العربية، وأكد أنه لا بد لكل حذف منه دليل من اللفظ أو من الحال، وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته»[١٤]، والمضاف إليه المحذوف يدل الحال

عليه أحيانا: أي السياق التداولي، فيما يدل اللفظ عليه أحيانا أخرى: أي التلوينات الصوتية المسماة تنغيما. ذلك ما يفهم من تخريجات ابن جني لكثير من قضايا القراءات في المحتسب، ومنه ما أورده في سياق حديثه عن قراءة الحسن البصري: ﴿سأوريكم دار الفاسقين﴾، حيث أوّل زيادة الواو في هذا الموضع بأنه موضع وعيد وإغلاظ، فمكن الصوت فيه وزاد إشباعه واعتماده، ثم قال في المضاف إليه: وقد جاء من هذا الإشباع، الذي تنشأ منه الحروف، شيء صالح نثرا ونظما، فمن المنثور قولهم: بينا زيد قائم جاء عمرو، إنما يراد بين أوقات زيد قائم جاء فلان، فأشبع الفتحة فأنشأ عنها ألفا»[١٥]. وهاهنا يتضح أن الإشباع يعوض المضاف إليه (أوقات).

ب - التفريق بين معاني الجمل والمقولات النحوية: يقوم التنغيم بوظيفة تمييزية واضحة بين الجمل الإنشائية الاستفهامية والجمل الخبرية، وذلك عن طريق رفع الصوت، يقول ابن مهران النيسابوري: «مدات القرآن على عشرة أوجه(...)،: ومد الفرق نحو آلآن؛ لأنه يفرق بين الاستفهام والخبر، وقدره ألف تامة بالإجماع، فإن كان بين ألف المد حرف مشدد زيد ألف أخرى؛ ليتمكن به من تحقيق الهمزة نحو: آلذاكرين الله»[١٦]، فالمد هو الذي يفرق بين الخبر والاستخبار، فإذا مددت دللت على الاستفهام، أما إذا حذفت المد فعلى الخبر، ومنه» قرأ: ﴿آن جاءه الأعمى﴾ بالمد الحسن. قال أبو الفتح: أن معلقة بفعل محذوف دل عليه قوله تعالى: ﴿عبس وتولى﴾، تقديره أآن جاءه الأعمى أعرض عنه، وتولى بوجهه ؟ فالوقف إذًا على قوله: ﴿وتولى﴾، ثم استأنف لفظ الاستفهام منكرا للحال، فكأنه قال: ألآن جاءه الأعمى كان ذلك منه؟»[١٧].

هكذا يتضح أن التنغيم يمكننا من قلب المعنى تمامًا من الخبر إلى الاستفهام أو العكس، على الرغم من أنهما «معنيان متدافعان»[١٨]. وبهذا يتجلى لنا أثر التنغيم في تنظيم التركيب، فماذا عن وظيفته الدلالية؟.

٣- الوظيفة الدلالية للتنغيم:

لا يصعب أن نجد في العربية ما نجده في الإنجليزية، حيث إنّ الكلمة الواحدة قد تتعدد معانيها بحسب ما يرافقها من تنغيم، فكلمة (Yes) مثلا يمكن أن تنطق بأشكال تنغيمة فيتغير معناها تبعًا للنغم:

- جملة تقديرية تعني: أوافق.
- سؤال: هل قلت نعم ؟
- طلب استمرار: أنا منصت، استمر.
- احتمال: من الممكن أن يكون.
- توكيد: بكل تأكيد[١٩].

لذلك نرى أن التنغيم – مع ذلك – له آثار دلالية وازنة في الجملة العربية، نقف على جزء منها في كلام ابن جني، حيث يقول في مد التذكر: «وأما مدها {أي الألف} عند التذكر، فنحو قولك: أخواك ضربا، إذا كنت متذكرا للمفعول به أو الظرف أو نحو ذلك: أي ضربا زيدا ونحوه. وكذلك تمطل الواو إذا تذكرت في نحو ضربوا، إذا كنت تتذكر المفعول أو الظرف أو نحو ذلك: أي ضربوا زيدا، أو ضربوا يوم الجمعة. أو ضربوا قياما، فتتذكر الحال. وكذلك الحال في نحو اضربي: أي اضربي

http://phonetics-acoustics.blogspot.com/

زيدا ونحوه. وإنما مطلت ومددت هذه الأحرف في الوقف وعند التذكر، من قبل أنك لو وقفت عليها غير ممطولة ولا ممكنة المدة، فقلت: ضربا وضربوا واضربي، وما كانت هذه الحالة وأنت مع ذلك متذكر شيئا، ولا أوهمت كل الإيهام أنك قد أتممت كلامك، ولم يبق من بعده مطلوب متوقع لك؛ لكنك لما وقفت ومطلت الحرف علم بذلك أنك متطاول إلى كلام تال للأول، منوط به معقود ما قبله على تضمنه وخلطه بجملته.

(...) ويدل على ذلك أن العرب لما أرادت مطلهن للندبة وإطالة الصوت بهن في الوقف، وعلمت أن السكوت عليهن ينتقصهن ولا يفي بهن، أتبعتهن الهاء في الوقف؛ توفية لهن وتطاولا إلى إطالتهن (...) والمعنى الجامع بين التذكر والندبة قوة الحجة إلى إطالة الصوت في الموضعين، فلما كانت حال هذه الأحرف، وكنت عند التذكر كالناطق بالحرف المستذكر، صار كأنه هو ملفوظ به، فتمت هذه الأحرف، وإن وقعن أطرافا؛ كما يتمهنّ إذا وقعن حشوا لا أواخر، فاعرف ذلك. فهذه حال الأحرف المطولة. وكذلك الحركات عند التذكر يمطلن حتى يفين حروفًا. فإذا صرنها جرين مجرى الحروف المبتدأة توامّ، فيمطلن أيضا حينئذ كما تمطل الحروف»[٢٠]. هذا الذي سماه أبو الفتح، في هذا الموضع، مد تذكر سماه في موضع آخر همزة تذكر[٢١].

فعند التذكر يرتفع الصوت ويزيد، وذلك يعني من المتكلم أنه في حال استذكار، وأن رسالته الكلامية لم تنته، ومن ثم الدلالة لم تكتمل بعد، مما يجعل المتكلم في حالة انتظار لبقية الكلام. إن دلالة التذكر، التي يحيل عليها المد والمطل، وسيلة ابن جني في الاحتجاج لكثير من القراءات الشاذة في المحتسب، وهذا يؤكد عدم استبعاد لحون العرب في القرآن الكريم، ومن ذلك قوله: ولو وقفت مستذكرا، وقد ضممت الواو، لقلت اشترووا، ففصلت ضمة الواو، فأنشأت بعدها واوًا؛ كأنك تستذكر «الضلالة» أو نحوها، فتمد الصوت إلى أن تذكر الحرف. ولو استذكرت وقد كسرت لقلت: اشتروي، فأنشأت بعد الكسرة ياء. ولو استذكرت وقد فتحت الواو لقلت: اشتروا، كما لو استذكرت بعد (من) وأنت تريد الرجل ونحوه لقلت منا؛ لأنك أشبعت فتحة من الغلام، وفي منذ: منذو، وفي هؤلاء هؤلائي. وحكى صاحب الكتاب أن بعضهم قال في الوقف قالا، وهو يريد قال.

وحكى أيضا: «هذا سيفني كأنه استذكر بعد التنوين، فاضطر إلى حركته فكسره، فأحدث بعده ياء، ولو استذكرت مع الهمز لقلت: اشترؤوا فالواو بعد الهمزة واو مطل الضمة، وليست كواو قولك: اجترؤوا، وأنت تريد افتعلوا من الجرأة»[٢٢]. كما احتج لقراءة أبي عمرو:حتى إذا ﴿أداركوا﴾، بالتذكر كذلك: «وأمثل ما يصرف إليه هذا أن يكون وقف على ألف (إذا) مميلا بين هذه القراءة وقراءته الأخرى، التي هي تداركوا، فلما أطمأن على الألف لذلك القدر من التمييل بين القراءتين لزم الابتداء بأول الحرف، فأثبت همزة الوصل مكسورة على ما يجب من ذلك في ابتدائها، فجرى هذا التمييل في التلوم[٢٣] عليه، وتطاول الصوت به مجرى وقفة التذكر في نحو قولك: قالوا - وأنت تتذكر - الآن من قول الله سبحانه: ﴿قالوا الآن﴾ فتثبت الواو من قالوا ؛ لتلومك عليها للاستذكار (...) ومثله اشترووا، إذا وقفت مستذكرًا للضلالة (...) تشبع الضمة لإطالة صوت وقفة،

الاستذكار، فتُحدث هناك واوًا تنشأ عن ضمة واو الضمير»[٢٤].

وأما الندبة فهي موطن آخر لرفع الصوت؛ دلالة على الحزن والضجر، لذلك قال سيبويه: «والندبة يلزمها يا ووا؛ لأنهم يحتلطون»[٢٥]، «ويدعون ما قد فات وبعد عنهم، ومع ذلك كأنهم بالندبة يترنمون فيها، فمن ثم ألزموها المد، وألحقوا آخر الاسم المد مبالغة في الترنم»[٢٦]. فالندبة تقتضي الترنم، بل المبالغة فيه، والضجر، وكلها سياقات تستلزم رفع الصوت والمد «جاءت مدة الندبة إظهارًا للتفجع، وإيذانا بتناكر الخطب الفاجع والحدث الواقع»[٢٧]. ولذلك وجدنا أبا الفتح يؤول قراءة ابن أبي ليلى ﴿يا ويلتا﴾: «وأصلها ياويلتي، فأبدلت الياء ألفا؛ لأنه نداء، فهو في موضع تخفيف»[٢٨].

وقال أيضا: في ﴿ونادى نوح ابناه﴾: «وقرأ ﴿ابناه﴾ ممدودة الألف السدي على النداء، وبلغني أنه على الترثي (...) وقرأ السدي ﴿ابناه﴾، يريد بها الندبة، وهو معنى قولهم الترثي، وهو على الحكاية؛ أي قال له: ياابناه على الندبة، ولو أراد حقيقة الندبة، لم يكن بد من أحد الحرفين: ياابناه، أو وابناه، كقولك: وا زيداه ويا زيداه»[٢٩].

ويرتفع الصوت كذلك دلالة على الإنكار، وهذا ما انتبه إليه أبو الفتح في باب في حرف اللين المجهول: «وذلك مدة الإنكار، نحو قولك في جواب من قال: رأيت بكرا: أبكرنيه، وفي جاء محمد أمحمدنيه، وفي مررت بقاسم: أقاسمنيه ! وذلك أنك ألحقت مدة الإنكار، وهي لا محالة ساكنة (...) فإن قيل: أفتنص في هذه المدة على حرف معين: الألف أو الياء أو الواو؟ قيل: لم تظهر في الإنكار على صورة مخصوصة، فيقطع بها عليها دون أختيها، وإنما تأتي تابعة لما قبلها، ألا تراك تقول في قام عمر: أعمروه، وفي رأيت أحمد: أأحمداه، وفي مررت بالرجل: آلرجليه (...) غير أننا نقول إن أخلق الأحوال بها أن تكون ألفا من موضعين:

أحدهما: أن الإنكار مضاهٍ للندبة، وذلك أنه موضع أريد فيه معنى الإنكار والتعجب، فمطل الصوت به، وجعل ذلك أمارة لتناكره؛ كما جاءت مدة الندبة إظهارا للتفجع؛ وإيذانا بتناكر الخطب الفاجع والحدث الواقع.

فكما أن مدة الندبة ألف فكذلك ينبغي أن تكون مدة الإنكار ألفا.

والآخر: أن الغرض في الموضعين جميعا إنما هو مطل الصوت، ومده، وتراخيه، والإبعاد فيه لمعنى الحادث هناك. وإذا كان الأمر كذلك فالألف أحق به دون أختيها؛ لأنها أمدهن صوتا، وأنداهن، وأشدهن إبعادًا وأنآهن. فأما مجيئها تارة واوا، وأخرى ياء ، فثان لحالها، وعن ضرورة دعت إلى ذلك؛ لوقوع الضمة والكسرة قبلها، ولولا ذلك لما كانت إلا ألفا أبدا.

(...) والمعنى الجامع بينهما أنك مع إنكارك للأمر مستثبت، ولذلك قدمت في أول كلامك همزة الاستفهام. فكما تقول في جواب رأيت زيدًا: من زيدًا؟ كذلك قلت في جواب جاءني عمر: أعمروه»[٣٠].

كما أن الدلالة على الوعيد والإغلاظ اقتضت تنغيما خاصا تمثل في الإشباع[٣١]، بينما الدلالة على القسم والرجوع إلى الحق يحيل عليها التلبث

http://phonetics-acoustics.blogspot.com/

على الكلمات، والتثبت فيها، والإشباع لها، أو المماطلة عليها، وهذا ما نستنتجه إذا ما استرجعنا نص ابن جني[٣٢]، وهو يتيح لنا أن نلحظ أن:

- لفظ الجلالة الله بنغمة مستوية وسريعة لا تفيد التوكيد، وهي لغو في الأيمان.
- لفظ الجلالة الله بنغمة صاعدة وممدودة تفيد معنى القسم المؤكد، فهي أيمان مغلظة.

و(بلى) بإطالة الإقامة عليها تفيد الرجوع إلى الحق في نحو قوله تعالى: ﴿**ألست بربكم؟ قالوا بلى**﴾.

ومن الوظائف الدلالية المهمة للتنغيم تحويل المعنى وقلبه تماما، وهذا ما نقف عليه في قول ابن جني: «وعلى ذكر طول الأصوات وقصرها لقوة المعاني المعبر بها عن وضعها ما يحكى أن رجلا ضرب ابنا له، فقالت أمه له: لا تضربه، ليس هو ابنك؛ فرافعها إلى القاضي، فقال: هذا ابني عندي، وهذه أمه تذكر أنه ليس مني. فقالت المرأة: ليس الأمر على ما ذكره، وإنما أخذ يضرب ابنه، فقلت له: لا تضربه ليس هو ابنك، ومدت فتحة النون جدا، فقال الرجل: والله ما كان منه هذا الطويل الطويل»[٣٣]، فما فهمه الأب بتنغيم معين، رفضته زوجته أمام القاضي، مدعية تنغيما آخر، فأقسم أنه لم يكن في كلامها هذا التنغيم: الطويل الطويل، وهنا نلمس الخطورة الدلالية التي يمكن أن يقوم بها الإشباع، فهو يوازي عبارات بأكملها، وتترتب عنه أحكام ومواقف، وبخاصة إذا تعلق الأمر بالنص القرآني.

ونختم بهذا النص الدال، حيث جعل أبو الفتح الأصوات مرهونة بما تحمله من دلالات، وهذا كقوله سابقاً: «المعاني تتلعب بالألفاظ»: «وإذا كان جميع ما أوردناه ونحوه، مما استطلعناه، فحذفناه، يدل أن الأصوات تابعة للمعاني، فمتى قويت قويت، ومتى ضعفت ضعفت (...) علمت أن قراءة من قرأ ﴿يا حسره على العباد﴾ بالهاء ساكنه، إنما هو لتقوية المعنى في النفس، وذلك أنه في موضع وعظ وتنبيه، وإيقاظ وتحذير، فطال الوقوف على الهاء كما يفعله المستعظم للأمر المتعجب منه، الدال على أنه قد بهره، وملك عليه لفظه وخاطره»[٣٤]. فهذه الدلالات جميعها: من وعظ وتنبيه، وإيقاظ وتحذير، تستلزم التنغيم تماماً، مثل لزومه في الاستعظام والتعجب والانبهار.

٣- التنغيم وخرق القواعد النحوية:

يقصد بالقواعد النحوية «قواعد مستويات الدرس اللغوي العربي، التركيبية والدلالية والصرفية والصوتية»[٣٥]... وقد لمسنا سابقا كيف يحوّل التنغيم دلالة الاستفهام إلى دلالات أخرى، وهو نوع من الخرق الدلالي. وتتعرض باقي المستويات للخرق، مما يجلي أثر التطريزات، ليس بوصفها جزءا من قواعد مستويات الدرس اللغوي، ولا بالاهتمام بأثرها في بناء المفاهيم والمقولات التركيبية والصرفية[٣٦] فحسب، بل بالنظر إلى تأثيرها في قواعد النحاة العرب الأقدمين.

ومن نماذج الخرق:

على مستوى التركيب: الفصل بين طرفي الوصف أو التعليق، يقول أبو الفتح محتجا لقراءة: ﴿يا حسرة على العباد﴾: «أما (يا حسره) بالهاء ففيه النظر، وذلك أن قوله (على العباد) متعلق بها، أو صفة لها، وكلاهما لا يحسن الوقوف عليها دونه، ووجه ذلك أن العرب إذا أخبرت عن الشيء غير معتمدته ولا معتزمة عليه أسرعت فيه، ولم تتأنّ على اللفظ المعبر به عنه»[٣٧]، وكذلك

التنغيم عند ابن جني

الاعتراض بين المضاف والمضاف إليه: «وروى الفراء عن بعضهم أنه سمعه يقول: أكلت لحما شاه، وهو يريد لحم شاه، فأشبع الفتحة، فأنشأ عنها ألفا، وهو اعتراض بين المضاف والمضاف إليه على ضيق الوقت وقصره بينهما»[38]، وقال أيضا: «ومن ذلك ما رواه مبارك عن الحسن أنه كان يقرأ ﴿بثلاثه آلاف﴾، و﴿بخمسه آلاف﴾، وقف لا يجري واحداً منهما (...)، وقد جاء عنهم نحو هذا، حكى الفراء أنهم يقولون: أكلت لحما شاة يريدون لحم شاة(...)، وهذا المطل لا يكون مع الإسراع والاستحثاث، إنما يكون مع الروية والتثبت،(...) وإذا جاز أن ينوى الوقف دون المظهر المضاف إليه، أعني قوله: (آلاف)، بل إذا جاز أن يعترض هذا الفتور والتمادي بين أثناء الحروف من المثال الواحد نحو قوله:

أقول إذا خرت على الكلكال

يا ناقتا ما جلت من مجال

وقوله فيما أنشدناه:

وأنت من الغوائل حين ترمى

ومن ذم الرجال بمنتزاح

يريد منتزح، مفتعل من نزح، كان التأني والتمادي بالمد بين المضاف والمضاف إليه؛ لأنهما في الحقيقة اسمان لاسم واحد أمثل. ونحو قراءة الأعرج عن أبي الزناد: ﴿بثلاثه آلاف﴾، بسكون الهاء، وقد ذكرناه فيما قبل، فهذا تقوية وعذر لقراءة أبي سعيد»[39].

لقد أبرز ابن جني في هذين النصين كيف يتم الفصل بين المضاف والمضاف إليه بعناصر تنغيمية، تمثلت في المطل والوقف بينهما على الرغم من أن «الإضافة تقتضي وصل المضاف والمضاف إليه؛ لأن الثاني تمام الأول، وهو معه في أكثر الأحوال كالجزء الواحد»، إضافة إلى ذلك جاء النص الأخير بأمثلة للخرق الصرفي، حيث تتحول (ينبع) إلى (ينباع) و(الكلكل) إلى(الكلكال) والواقع أن الخرق الصرفي كثير جدا، ومنه ما ذكره في(الخصائص) باب في مطل الحركات[40]، حيث تتحول (منتزح) إلى (منتزاح)، و(أمين) تصبح (آمين) و(الصيارف، والمطافل، والجلاعد) تصبح على التوالي (الصياريف، والمطافيل، والجلاعيد) وكذلك (انظر والقرنفل) يصبحان (أنظور، والقرنفول)، ثم ما جاء منها قسه عليها»، ختم هذا الفصل قائلاً: «فهذه هي الطريق ومع هذا يصبح الخرق قياسياً لا حالات شاذة معزولة». وبهذه العلة احتج ابن جني لقراءة: ﴿سأوريكم﴾ مُعيدا أمثلته في الخصائص، ثم قال: «فإذا جاز هذا ونحوه نظما ونثرا ساغ أيضا أن يتأول لقراءة الحسن ﴿سأوريكم﴾ أراد سأريكم، وأشبع ضمة الهمزة فأنشأ عنها واوا»[41]. ومن الأوزان المخروقة كذلك «فعل» التي تصبح «فعيل» يقول أبو الفتح: «وروينا عن قطرب:نعيم الرجل زيد، بإشباع كسرة العين، وإنشاء ياء بعدها، كالمطافيل والمساجيد، ولا بد أن يكون الأمر على ما ذكرناه؛ لأنه ليس في أمثلة الأفعال فعيل ألبتة»[42].

إن هذه الخلخلة للصيغ الصرفية وقيودها نتيجة الإشباع أثارت نقاشات حادة بين القدماء، ومن ذلك ما أورده الزجاج عند حديثه عن آمين: وفي (أمين) لغتان: قصر ومد، فالمقصور عربي، لكثرة: (فعيل) في العربي، والممدود مختلف فيه، وقد حكينا عن الأخفش: أنه أعجمي ؛ لما لم ير هذا المثال في العربي، والممدود مختلف فيه، وقد حكينا عن الأخفش: أنه أعجمي؛ لما لم ير هذا المثال في العربي، وهذا لا يصح(...) والمد فيه

http://phonetics-acoustics.blogspot.com/

لإشباع الفتح كإشباع (منتزاح) و(أنظور) و(الصياريف)، وغير ذلك.

وكما لا يجوز لأحد أن يقول إن هذه الكلمات أعجميات لخروجها عن كلامهم، فكذلك لا يقال في «آمين»[٤٢].

فالألفاظ المشبعة ليست أعجمية، ولكنها أيضا ليست على مقاييس علماء الصرف وأوزانهم، وإنما هي ألفاظ فصيحة لحقها التنغيم.

ويخرق - على المستوى الصوتي:

مبدأ «عدم التقاء الساكنين»، على الرغم من أهميته؛ حيث إن التنغيم يكون غالباً بالمد، والمدّ عندهم ساكن، فإذا وجد ساكنًا آخر حدث التقاء الساكنين، قال أبو الفتح: «قرأ: ﴿آن جاءه الأعمى﴾ بالمد الحسن»[٤٤]، الأعمش: «آلحق هو»[٤٥]، وهذه من صور الاغتفار عندهم وهم «إنما فعلوا ذلك خوف لبس الخبر بالاستخبار»[٤٦]، فالتنغيم للدلالة على الاستفهام جعلهم يغضون الطرف عما أسموه التقاء للساكنين.

وعلى كل حال، الخرق جارٍ على كل المستويات في سبيل الحفاظ على التنغيم ومقتضياته، وهذا لا ينبغي أن يستغرب له، وبخاصة إذا خرق الإعراب، على الرغم من أهميته البالغة عند النحاة، إلا أنّه عنوان الدرس اللغوي العربي، ووسيلة التحليل اللغوي، وحامل دلالة القصد من عملية التكلم[٤٧]، ومع ذلك يخرقه التنغيم «ولا يخفى ذلك عليك» على ما به من مظاهر انتقاض صنعته، فإن العرب قد تحمل على ألفاظها لمعانيها حتى تفسد الإعراب لصحة المعنى، ألا ترى أن أقوى اللغتين، وهي الحجازية، في الاستفهام عن الأعلام نحو قولهم فيمن قال: مررت بزيد: من زيدٍ؟ فالجر حكاية لجر المسؤول عنه، فهذا مما احتمل فيه إضعاف الإعراب لتقوية المعنى. ألا ترى لو ركب اللغة التميمية طلبا لإصابة الإعراب فقال: من زيدٌ لم يتضح من ظاهر اللفظ أنه إنما يسأل عن زيد هذا المذكور آنفا، ولم يؤمن أن يظن به أنه إنما ارتجل سؤالا عن زيد آخر مستأنفا؟ (...) فهذا ونظائره يؤكد أن المعاني تتلعب بالألفاظ، تارة كذا، وأخرى كذا[٤٨].

إن هذا النص يبرز قضايا مهمة منها:

أ- أن التنغيم يتخطى - بصفته قضية صوتية تطريزية، تجمع بين الأداء والتداول - الإعراب، وهو أسمى المستويات عند النحاة.

ب- أن المعاني أقوى من الأساليب والألفاظ، تتلعب بها، والتنغيم من الوسائل الناقلة لها.

ج- أن الظاهرة التنغيمية: (من زيدٍ؟) لحن حجازي في الاستفهام، ولكنه استبعد من قواعد النحاة، شأنه في ذلك شأن كثير من الألحان، وهنا تبرز مرة أخرى الملاحظة السابقة: إن القرآن قرىء بألحان العرب.

خلاصة:

لقد حاولنا أن نجلي أثر التنغيم في تفسير قضايا صرفية وتركيبية... في اللغة العربية، من خلال إدراج مستوياته اللحنية و وظائفه المختلفة، وقد تجلى لنا - من خلال نصوص لابن جني في كتابيه: الخصائص والمحتسب أثر التطريزية، ومنه التنغيم في تأويل ظواهر لغوية بدت معقدة، والاحتجاج لقراءات قرآنية صنفت شاذة، فلمسنا أن التنغيم ليس موظفا بوصفه أداة تأويلية فحسب، بل قدم أحيانا على قواعد النحاة التركيبية والصرفية والصوتية والإعرابية. ولعل في هذا دعوة إلى مراجعة نفي هذه الظاهرة عن كتب النحويين القدامى. ■

الحواشي

١- Etudes De Lingidtique Arabe : 149
٢- المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها:٢٥٢.
٣- اللغة العربية: معناها ومبناها:٢٨٢.
٤- انتبه بعض المحدثين إلى التنغيم في كتب القدماء، نذكر منهم: عبد السلام المسدي، وأحمد كشك، ومبارك حنون، وعبد الحميد زاهيد.
٥- من وظائف الصوت اللغوي محاولة لفهم صرفي ونحوي ودلالي:٥٧.
٦- المحتسب في تبيين وجوه القراءات والإيضاح عنها:٢/٢٠٨ - ٢٠٩.
٧- الكشف عن وجوه القراءات وعللها وحججها: ١/٥٧-٥٨.
٨- المحتسب:١/٢٥٩.
٩- المصدر نفسه:٣٠٩.
١٠- المصدر نفسه: ٢/٢٠٩.
١١- المحتسب:١/٢٥٩.
١٢- الخصائص:٢/٣٧٠-٣٨٢.
١٣- في بنية الوقف وبنية اللغة:٢/٣٥٦.
١٤- الخصائص: ٢/٣٦٠.
١٥- المحتسب:١/٢٥٨.
١٦- نقلا عن: الإتقان في علوم القرآن:١/٩٨.
١٧- المحتسب:١/٣٥٢.
١٨- المصدر نفسه: ٢/١٦٥.
١٩- نقلا عن: دراسة الصوت اللغوي ٢٣٠.
٢٠- الخصائص:٣/١٢٨-١٣٣.
٢١- المصدر نفسه: ٢/٣٣٧.
٢٢- المحتسب:١/٥٥. وهو يحتج لقراءة: (اشتروا الضلالة).
٢٣- التلوم: التمكث والانتظار.
٢٤- المحتسب:١/٢٤٧.
٢٥- يحتلطون: يضجرون ويغضبون.
٢٦- كتاب سيبويه:٢/٢٣١.
٢٧- المحتسب:٢/٢١٣.
٢٨- المحتسب:٢/ ٢١٣.
٢٩- المصدر نفسه: ١/٣٢٢-٣٢٣.
٣٠- الخصائص: ٣/١٥٤-١٥٦.
٣١- المحتسب:١/٢٥٩.
٣٢- المصدر نفسه: ٢/٢١٠.
٣٣- المصدر نفسه: ٢/٢٠٨- ٢٠٩.
٣٤- المصدر نفسه: ٢/٢١٠.
٣٥- انظر: كتاب الجمل في النحو:١٩٠.
٣٦- انظر في هذا الصدد: بنية الوقف وبنية اللغة: ٢/٥١٨-٥٢٨.
٣٧- المحتسب: ٢/٢٠٨.
٣٨- المصدر نفسه: ١/٢٥٨.
٣٩- المصدر نفسه: ١/١٦٥-١٦٦.
٤٠- المصدر نفسه:٢/٢٥٦-٢٥٩.
٤١- المصدر نفسه: ١/٥٣٧.
٤٢- الخصائص:٣/ ١٢١-١٢٤.
٤٣- إعراب القرآن:١/١٥٠-١٥١.
٤٤- المحتسب: ٢/٣٥٢.
٤٥- المصدر نفسه: ٢/٣٢١.
٤٦- البرهان في علوم القرآن:١/٣٩٨، وانظر كذلك: شرح الشافية:٢/٢٤٤.
٤٧- الإعراب بين الحد والوظيفة:٩٩.
٤٨- الخصائص:٢/٢١١.

المصادر والمراجع

- **الإتقان في علوم القرآن.** لجلال الدين السيوطي، دار الفكر، (د.ت).
- **الإعراب بين الحد والوظيفة**، اللسانيات واللغة العربية بين النظرية والتطبيق لحسين كنوان، والندوات ٤، كلية الآداب مكناس، المغرب ١٩٩٢م.
- **انشطار الفتحة وكتاب المحتسب**، لإدريس السغروشي، مجلة كلية الآداب والعلوم لإنسانية بالرباط، ع٢١-٢٢،س١٩٩٦م.
- **البرهان في علوم القرآن.** لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، خرج حديثه وقدم له وعلق عليه مصطفى عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان، ١٩٨٨م.
- **التفكير اللساني في الحضارة العربية.** لعبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس،١٩٨١.
- **التمهيد في علم التجويد.** لشمس الدين محمد ابن الجزري، تح، غانم قدوري حمد، ط٤، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٧.
- **الخصائص.** لأبي الفتح عثمان بن جني، تح. محمد علي النجار ، عالم الكتب، بيروت- لبنان ١٩٨٣.

مقالات

http://phonetics-acoustics.blogspot.com/

- دراسة الصوت اللغوي، لأحمد مختار عمر، عالم الكتب ، القاهرة ، مصر ، ١٩٩١م.
- شرح شافية ابن الحاجب، لرضي الدين محمد بن الحسن، ومحمد الزفزاف، ومحمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٩٧م.
- الصوتيات والفونولوجيا، لمصطفى حركات، ط١، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت - لبنان، ١٩٩٨م.
- في بنية الوقف وبنينة اللغة. لمبارك حنون، مرقونة، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط - المغرب،١٩٩٧م.
- كتاب الجمل في النحو، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تح فخر الدين قباوة، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان
- كتاب سيبويه، لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، سيبويه، تح. وشرح عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، ط١، بيروت - لبنان، ١٩٩١م.
- اللغة العربية: معناها ومبناها. لتمام حسان، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب،(د.ت).
- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات، والإيضاح عنها، لأبي الفتح عثمان بن جني، تح. عبد الحليم النجار، عبد الفتاح إسماعيل شلبي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء كتب السنة، القاهرة- مصر، ١٩٩٤م.
- المحيط في أصوات اللغة العربية ونحوها وصرفها. لمحمد الأنطاكي ، ط٣، دار الشرق العربي ، بيروت - لبنان، ١٩٧١م.
- المد والسكون، التواصل اللساني. لمبارك حنون ،م اللسان العربي ٦،ع٢، س ١٩٩٤م.
- من وظائف الصوت اللغوي محاولة لفهم صرفي ونحوي ودلالي، لمحمد كشك، ط٢، كلية دار العلوم، القاهرة،١٩٩٧م.
- النبر والتنغيم في اللغة، لمناف مهدي محمد المساوي، م اللسان العربي، ع٣٥،س١٩٩١م.
- النشر في القراءات العشر، لشمس الدين محمد بن محمد الجزري، تصحيح محمد علي الضباع، دار الفكر، د.ت.

باللغات الأجنبية :

- Accent, Rythme et intonation, Faure ,G,Le Francais dans le.mond, N57,1960.
- Etudes de Linguistique Arabe,Cantineau,J,C.
- Klinick Steck,Paris 1960.l
- Lintonation de L'†Acoustique aLa semantique, Rossi,M. Di Cristo, A Hirst D>,M. et Nishinuma Y. ed,
- Klincksieck,
- Paris,1981.
- Phonology:an introduction to Basic concepts, Lass, R, Cambridge University Press,1984.
- Prosodic Phonology:the Theory and its application to languge acquisition and speech, processing, Waterson, N, Grevat New Castle upon Tyne, 1987.
- The Handbook of Phonologic theory, Gold Smith, j eds, Black Well Hand books Linguistcs,N: black well,1995.